ما بين تلميذة ومعلمة

عايدة سالم

سلسة من الأحداث خَلقت في مُخيلتي الكثير من العلامات الفارقة، ما بين تلميذةٍ ومعلمة كان هناك حكاية تدعى (أنا).

بدأت تتماثل الأحداث في مخيلتي منذ أخبرتني أمي أني كبرت وعلي الذهاب برفقة أخوتي إلى المدرسة. لم أكن أكترث لشيء حينها سوى غرفة تحوي ألعاباً وأحلاماً صغيرة. حينها صورت لي أمي الأمر، بأن المدرسة تعني: أصدقاء، لعباً، ساحة كبيرة، ألواناً كثيرة.

في أول أيام المدرسة، ذهبت برفقة إخواني ولم يرق لي الأمر، بكاء وصراخ في كل مكان، استمر الأمر أياماً لم يكن هناك ما أشغل نفسي به سوى النظر إلى ذاك المكان الذي لم أجد فيه شيئاً مما وعدتني به أمي. أين الألعاب والساحة الكبيرة؟ وفي أي سرداب من تلك الغرفة توضع الألوان؟ وهؤلاء الأقران متى سيكفون عن البكاء لنلعب؟

ما كنت أراه آنذاك لوح بعرضٍ الحائط، وعلب من الطباشير، والقليل من معجونة اللعب التي نادراً ما كنت أراها، وقصص رباب وباسم، حيث كنت أتوق شوقاً لمعرفة من هما رباب وباسم اللذان رافقاني بدروسي طوال ثلاثة أعوام!

ففي هذا المبنى الفخم ذي الطبقات المتعددة، كل شيء يسير بنظام وموعد، فهناك توقيت للطعام، وتوقيت للذهاب لدورة المياه، والوقت بأكمله للدراسة. مرت سنوات كنت خلالها أستيقظ كل صباح كمن يستعد للذهاب إلى معتقل حريته. أجلس على المقعد نفسه طوال العام حتى مللت منه ومل مني. كنت فور عودتي إلى البيت أجمع كل الدمى التي نملكها أنا وإخواني، أضعها على مقعد كبير في غرفة الجلوس، وأبدأ بفرض تعليمات وقوانين على تلك الدمى ... .

لم أحب التعليم يوماً، ولم أكن أطمح أن أكمل تعليمي، أو أصبح معلمة، فمنذ اليوم الأول لم تكن المدرسة بالنسبة لي الشيء المحبب، فلم أشعر يوماً أن المدرسة محطة استكشاف أو بحث ومعرفة. كل ما كنت أراه أو أشعر به هو وجودي في مكان عليَّ تنفيذ الأوامر فيه دون جدال، وتدوين كل ما تكتبه المعلمة على اللوح، وحفظه غيباً، وأحيانا كنت أجد نفسي أكرر ما تقوله المعلمة تكراراً ببغاوياً لا أكثر ... فذاك الدستور (المنهاج) فرض واجب علينا إنهاؤه قبل نهاية العام.

في المرحلة الإعدادية، بدأت أتراجع في دروسي كثيراً، وبخاصة في مادة التاريخ؛ فلست ممن يجيدون «بصم المواد». لم تكن تمر حصة تاريخ دون أن أوبخ أو أعاقب فيها لكثرة أسئلتي. ومن أقسى العقوبات التي وقعت علي من معلمة التاريخ السيدة (د) حين أمرتني أن أقف في ساحة المدرسة أثناء طابور الصباح، وأنا أحمل ورقة كبيره كتب عليها (أنا طالبة مهملة لا أحترم النظام)، أذكر أنها كانت المرة الأخيرة التي وقفت بها على قدمي في ذاك العام. ثلاثة شهور متتالية وأنا أتنقل من مكان إلى آخر بواسطة الكرسي، وأحياناً كان إخواني يحملونني ويساعدوني في التنقل، على أثر تلك الحادثة

تم توقيف المعلمة عن العمل.

الجفاء الذي كنت أشعر به اتجاه المدرسة تضاعف بسبب تلك الحادثة. عندها رفضت العودة إلى مقاعد التعليم مجدداً، وبقيت في البيت مدة عامين. خلال تلك الفترة، كنت أتساءل هل عدم رغبتي في المدرسة معصية؟ هل المنهاج هو الدستور؟ وهل العقاب هو الوسيلة الأمثل لعملية الاستقطاب والترغيب في التعليم؟ وهل هو الحل دوماً؟ هل كل المعلمين يلعبون دور الجلاد في المدرسة؟

ما حدث كان درساً شديد القسوة تعلمت منه الكثير. بعد أن تعافيت تماماً عدت مجدداً إلى مقاعد الدراسة، لكن هذه المرة بإصرار وإرادة قوية كنت لا آبه لشيء سوى تحصيل أعلى العلامات، والحصول دوماً على شهادة تقدير، كان الأمر بالنسبة لي بمثابة تحدٍّ لأثبت أني لست مهملة كما ادّعت تلك المعلمة. أكملت مسيرتي التعليمية، درست بعد ذلك تربية، ثم إرشاد، في البداية عملت بشكل تطوعي في مدرسة مختلطة لمدة عام، أكسبني ذلك الكثير، فطوال تلك الفترة كنت استكشف الأمر من منظور آخر فانا هنا لست تلميذة أنا الآن معلمة . هل يراني الطلاب كجلاد ؟ ماذا سأفعل اتجاه ذاك المسمى بالمنهاج، وهذا الآخر الملقب بدفتر التحضير؟ كيف سأبدأ؟ كانت تجربتي الأولى مع طلاب الصف الثاني الابتدائي.

منذ البداية، قررت أن لا أستخدم أسلوب التعليم النمطي أو التلقين، حاولت التوصل لأسلوب مغاير يتفق مع اهتمامات الطلاب وميولهم، نادراً ما كنت أستخدم القصة مع طلاب الصف الثاني أو الصفوف الإعدادية، فما كان يحتاجه طلابي هو الشعور بدورهم في عملية التعليم، حيث كنت أستمع لأسئلتهم، وأترك لهم مجال البحث عن أجوبه لها، إضافة إلى القيام بجولات ميدانية، وعمل تجارب، هذا ما كنت أفتقد إليه في مدرستي، وهذا ما شعرت أن طلابي يحتاجون إليه، فما كنت أتحاشاه دوماً أن أكون صورة عن المعلمة (د)، لم يكن تطبيق ذلك بالأمر الهين، فالتجربة لا تخلو من الصعوبات، ولا تخلو من المتعة، فالطلاب ينبضون بالحماس والطاقة، ولديهم أسئلة لا تنتهي يبحثون لها عن إجابات.

بعد انتهاء العام، استلمت وظيفة في مكان آخر، التجربة هنا مع رياض الأطفال، إن أصعب الأوقات وأهمها بالنسبة لي وللأطفال هي الأيام الأولى من العام الدراسي. أظن أني اجتزتها معهم بأقل قدر من المتاعب، عملت معهم عامين من أجمل اللحظات وأكثرها متعه واستكشافاً، كنت دوما أترقب مشاعر طلابي؛ هل لديهم شيء جديد يرغبون في أن نقوم به معاً؟ حتى القوانين الصفية كنت أضعها معهم بمشاركتهم في كل مرة، كانت القوانين منهم ولهم، كنت أشعر بحرصهم على الالتزام بها أكثر مني، حاولت تفادي ذلك الحائط الكبير المسمى بـِ (اللوح)، كان أسلوب القصة هو الأنسب لهم، كانت هناك طرق عدة لإيصال ما أريد لهم مثل مسرح العرائس، مسرح الظل، وحلقة الحوار المستمر بيننا، فكان لكل منهم الكثير من القصص التي يرغب في أن نشاركه بها، لم أشعر يوماً أن العقاب أمر ضروري، لكي أكمل نشاط أو حصة أقوم بها.

خلال تلك الفترة التحقت ببرنامج الإرشاد لتفعيل الأسرة والمجتمع المحلي بالعملية التربوية، وانتقلت إلى العمل على تطبيق المشروع، وانتهى الأمر بوظيفة منسقة نشاطات في مدارس المنطقة، ومشرفة ميدانية بمدرسة الحي التي أعمل فيها حالياً، حيث تشمل طلاب المرحلتين الأساسية والثانوية. أثناء وجودي في قسم الإعدادي، كنت أتابع الطلاب والمعلمين، فمنهم ما زال متقمصاً شخصية المعلمة (د)، ومنهم من لم يحدد لأسلوبه هوية بعد، ومنهم من يدرك كيف يتعامل مع تلاميذه بوعي وحنكة، فالطلاب ليسوا أنفسهم، كانوا ممتلئين بالحماس والأسئلة في الصف الأول، أصبحوا الآن في الصف الثامن يهزون رؤوسهم للمعلم بأنهم يفهمون كل شيء يتعلق بالدرس وليس لديهم أسئلة!

دوماً أحاول البحث عن أساليب غير نمطية تحفز الطلاب على البحث والعمل من أجل الحصول على المعلومة، عدد لا بأس به من المعلمين، كانت النتائج مرضية بالنسبة لهم، فاتبعوا الأساليب نفسها في حصصهم، والبعض الآخر ما زال متمسكاً بأسلوبه وقناعاته بنمطية التعليم.

عايدة سالم
روضة ومدرسة نور القدس الإبتدائية – القدس

من ورشة عمل «توظيف الرسوم المتحركة في التعليم».